عرض كتاب: قضايا في السيمياء والدلالة[1]

Book review: Issues in semiotics and semantics

د. أحمد الجنادبة – أستاذ مساعد

قسم اللغة العربية- جامعة زايد- الإمارات العربية المتحدة

Ahmad.aljanadbah@zu.ac.ae

تاريخ الإرسال: 2020/05/09	تاريخ القبول: 2020/07/13	تاريخ النشر: 2020/12/01

عرض عام للكتاب وأهميته

الكلمات المفتاحية: السيمياء، الدلالة، التداولية،الترجمة،المعرفة.

Key words: Semiotics,Semantics,Pragmatic,Knowledge.

يتكوّن كتاب " قضايا في السيمياء والدلالة" من مجموعة أبحاث في موضوعات تتعلق بالعلوم الدلالية والسيميائية جمع فيها الباحث الدكتور صابر الحباشة بين التأليف أصالة باللغة العربية والنقل إليها ترجمة، مُقدّمًا لقراء المكتبة العربية، زادًا نافعًا، عند عرضه لرؤى لسانية وأطروحات فلسفية لغوية لبعض أشهر المنظرين الغرب. نقل الحباشة هذه النظريات متّبعًا نهجًا علميًا رصينًا استعرض فيه ما جاد به البحث اللساني المعاصر من نظريات لسانية محورها الرئيس، اللغة ووظائفها التواصلية، ولعل أهم ما جوّد كتاب الحباشة هو عدم اكتفائه بنقل كنه النظرية إلى القارئ العربي فحسب؛ بل اجتهد اجتهادًا بيّنًا بشفع كل نظرية، بدراسة تطبيقية على جانب من جوانب اللغة العربية، ممّا يسّر فهم هذه النظريات وتحليلها للقارئ.

من غير شكّ أن هذا الأسلوب العلمي يتطلّب باحثًا متمرّسا ذا تجربة عميقة واطّلاع كثيف على ما يستجد هنا وهناك في علوم الدرس اللغوي قديمها وحديثها، وهي ميزات مستحقة في مسيرة الدكتور الحباشة تشهد له منجزاته البحثية بذلك، وإنتاجه المعرفي الذي بلغ أكثر من خمسة عشر كتابا في الباب ذاته. ولعل الدافع الرئيس لاختياري هذا الكتاب يعود إلى قدرة الحباشة في هذا الكتاب إرداف الجانب النظري بدراسة تطبيقية من شأنها التأثير الإيجابي على مسارات اللغة العربية عند الباحثين العرب الجدد، واقتصار تأثرهم بالنظريات الغربية على الشكل دون الغوص على المضمون، كما أنّ هذه الدراسات تضع القارئ العربي على مشارف

المعرفة اللغوية ومستجداتها برؤى ثاقبة دقيقة عبّر عنها الدكتور محمد عمر أمطوش في تقديمه المختزل للكتاب.

يهدف عرض هذا الكتاب ومراجعته إلى توعية القارئ العربي وتحفيزه على الاطّلاع الجادّ المكثّف على النظريات السيميائية، في ظل إدراك أهمية نشر الوعي اللغوي العربي بين أفراد البيئة اللغوية العربية، وفي ظل تصاعد الاهتمام العالمي بالدراسات السيميائية وتطبيقها على اللغة البشرية التي تُعنى برعاية كبيرة من قبل المؤسسات اللغوية العالمية والمختصين- ولعل اللغة العربية أحوج ما تكون إلى مثل هذا الاهتمام وهذه الرعاية، كما يهدف إلى استكمال النهج الذي اتخذه الحباشة في تطبيق هذه النظريات على اللغة العربية نموذجًا ناجعًا لإسعاف حالات الخطر والضعف في إحياء الدرس اللغوي العربي وفق أسس علمية ورؤى نظرية واضحة.

عرض فصول الكتاب.

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء، يندرج تحتها تقديم، وتمهيد، وخمسة فصول، تناولت الفصول الخمسة المجالات المختلفة لعلم الدلالة والقضايا اللغوية المرتبطة به، جاء التقديم بقلم الأستاذ الدكتور محمد عمر أمطوش بعنوان: "مع الأستاذ صابر الحباشة في تخوم العلاميّة والإدراكيّة"؛ وقد امتدح به دراسات الدكتور صابر الحباشه وما تمثّله من قيمة كبيرة للقارئ العربي وإثراء للمكتبة العربية على حد سواء، كما أثنى الدكتور أمطوش على الجهد الكبير الذي بذله الدكتور الحباشة في فهم ونقل الأفكار والنظريات الواردة في هذا الكتاب، وأشاد بالإيجابيات الكبيرة لهذا المنجز قائلًا: "تميّز عملُ الأستاذ الحباشة بإيجابيّات كثيرة أولاها أنّه يقرّب إلى القارئ العربي كنزًا لا يُضاهَى ويُقارع نصوصًا ومجالاتٍ صعبةً وقد كان سبّاقًا إلى بعضها فاستحقّ بهذا كل التقدير". (ص11)

جاء التمهيد بعنوان: "موازنة بين ترجمتين عربيتين لكتاب تشومسكي آفاق جديدة لدراسة اللغة والفكر" (بترجمة: حمزة المزيني وعدنان حسن) وفيه قراءة موجزة لفرع من فروع دراسات الترجمة وإشكاليات نقل المعرفة الحديثة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، من خلال تبيان دور الترجمة في مواكبة تطور البحث العلمي. سلّط الضوء على إشكالية اضطراب المصطلح أثناء الترجمة، وتعدد المقابل في اللغة العربية للمصطلح في اللغات الأجنبية، إضافة إلى إشكاليات أخرى عائدة إلى تعدد مشارب المترجمين العرب وتنوع مجالاتهم المعرفية مما يساهم في التشويش على القارئ العربي وضياع قيمة النص المترجم.

ناقش الحباشة إشكالية ترجمتين لنص واحد منطلقًا من سؤال جوهري يطرحه في مقدمة التمهيد "ما مدى اطلاع المترجم الثاني على عمل المترجم الأول" وهذا سؤال جدير بالطرح والمناقشة لما يحمل من قيمة كبيرة في فهم فوضى الترجمة في عالمنا العربي، وسُبل الارتقاء بها.

مجلّة العلامة المجلد:05 العدد : 02 التاريخ : 2020/12/01- ISSN 2478-0197 - ESSN 2676-1718

وفي نفس السياق يشير الحباشة إلى أهمية الدراسات المقارنة ويحثّ على ديمومتها؛ سيما تلك التي تنطلق من غاية جوهرية هدفها الرئيس الكشف عن مواطن القوة والتميّز في إحدى الترجمتين، رجاة المنفعة المتبَادلة في مواطن القوة، والإشارة إلى السقطات في الترجمتين أجلَ التنبه لها وعدم تكرارها؛ وهذه المقارنة البنّاءة التي اعتمدها الحباشه في مقارنته بين عملي: حمزة المزيني، وعدنان حسن في ترجمتهما لكتاب تشومسكي المذكور أعلاه.

أبان الحباشة عن الاختلاف الواقع بين الترجمتين في المصطلح، والجمل، والأمثلة المستخدمة في كتاب تشومسكي، موضّحًا عدم استقرار المصطلح أو الترجيح بين البدائل الاصطلاحية الأخرى في ترجمة عدنان حسن، ومردّ ذلك عدم خبرة عدنان حسن في علم اللسانيات: "ولعلّ سياق خبرته بالترجمة غير اللسانية لا يُسعفه بالدقّة الكافية التي تحتاج إليها الترجمة في هذا القطاع المعرفيّ الدقيق"(ص18)، بينما وفّق حمزة المزيني في هذا الجانب" أمّا اختيارات حمزة المزيني الاصطلاحية فتتسم بقدر كبير من الانسجام مع المقترحات اللسانية التي جرى استعمالها لدى شقّ مهمّ من الباحثين اللسانيّين العرب المعاصرين. كما هذه الترجمة تمثل استمرارًا لتجربة المزيني السابقة"؛ يقصد الحباشه هنا نجاح المزيني في ترجمة كتاب تشومسكي" اللغة ومشكلات المعرفة".

وفيما يخص المنهج والأسلوب العلمي المتبعين في الترجمتين، فقد فضّل الحباشة منهج حمزة المزيني وأسلوبه على منهج عدنان حسن، وقد سوّغ ذلك بأنّ المزيني جوّد ترجمته بمقدمة مطوّلة احتوت على جوانب تطال مشروع تشومسكي المعرفي اللساني وإشارة مقتضبة إلى كيفية عمل المترجم، إضافة إلى تزويد المزيني ترجمته بقائمة المراجع التي اعتمد عليها تشومسكي ومسرد لجميع المصطلحات التي وردت في الكتاب، بينما خلت ترجمة عدنان حسن من ذلك كله.

ويرى الحباشة أنه ليس من داع للشك في أن أسلوب حمزة المزيني في الترجمة يحظى بإعجاب القارئ العربي- سواء أكان هذا القارئ متخصّصًا في علم اللسان أم غير متخصّص فيه- وذلك لمراعاة المزيني خصائص أساليب اللغة العربية وفهمه العميق للنص المترجم، أما عدنان حسن فتبرز الرطانة في أسلوبه والغموض في تعبيره مما يزيد من ضبابية الفهم لدى القارئ العربي.

الفصل الأول تعريب لدراسة جون بيير مونييه (Jean-Pierre Meunier) عُني هذا الفصل بدراسة الوجوه البلاغية للصورة، وعلاقتها بالمعرفة عند الفرد. ومن الجدير ذكره أنّ مثل هذه الدراسات نادرة التداول على طاولة الحوارات والملتقيات العلمية العامة والخاصة في عالمنا العربي، إضافة إلى ندرتها في رفوف المكتبات العربية لذا جهد الحباشة في تقديم تلك المفاهيم والآراء للقارئ العربي والمثقف العربي في عرض مفصّل دقيق لمفهوم وتصورات النواحي الذهنية

مجلّة العلامة المجلد:05 العدد : 02 التاريخ : 2020/12/01- ISSN 2478-0197 - ESSN 2676-1718

للصورة عند مونييه الذي يدافع عنها بقوله: "ممّا يعني أنّ الصورة لا يمكن أن يُنظر لها بوصفها زينة وإخراجًا، بل هي نفسها فكرة والفكرة صورةٌ"(ص27).

وقد أسهب الحباشة في عرض مفهوم الصورة ودورها في إيضاح التعابير اللسانية المختلفة للوضعية الموضوعية نفسها، وربط هذا المفهوم بدراسة النظرية السيميائية العرفانية للغة عند بورس Peirce، وبياجي Piaget ولانغاكير Langacker وإسقاطاتها على الثالوث البورسي: (المؤشر والأيقونة والرمز). والملاحظ أن سؤال: كيف كانت اللغة تخدم الصورة الذهنية في غرضي الترجمة والتواصل؟ يحتلّ مساحة كبيرة في هذا الفصل الذي يحتضن نقاشًا موسّعًا حول البعد الذي تضفيه اللغة الملفوظة بالنسبة إلى العالم المدرك، وبالنسبة إلى التمثل الداخلي لذلك البعد.

والحاصل أنّ هذا الفصل مثلما يقول الحباشة في تمهيده لترجمته له: "بحث يتعلق بتبيّن ضروب العلاقة بين الصورة والمعرفة. ويطرح رؤية مختلفة عن النظرة التقليدية للصورة كما جاءت في الأدبيات البلاغية، حيث يُكتفى بتنميط الصورة عبر تسميتها وتقسيمها إلى تشابيه واستعارات، وما تتفرع إليه من تفريعات جزئية... أمّا هذا البحث فيركّز على النواحي الذهنية والتواصلية لمبحث الصورة. ويدافع مونييه عن فكرة أيقونية الفكر البشريّ، ممّا يعني أنّ الصورة لا يمكن أن يُنظر لها بوصفها زينة وإخراجا، بل هي نفسها فكرة والفكرة صورةٌ".

أمّا الفصل الثاني فقد جاء بعنوان "أنطوني ريدنج: المعلومة الدالّة: جسر بين البيولوجيا والدماغ والسلوك" وفي هذا الفصل المترجم يتمكن القارئ كشف الأسباب الكامنة وراء الخلط الحاصل في فهم الناس للمعلومة الدالة واستعمالاتها لا سيما في نظريتي السيبارنيطيقا، والإعلام، فيرى ريدنج أن المعلومة هي كلمة يعسر تعريفها بطريقة يتفق عليها الجميع، إلا أنه من المؤكد لنا جميعًا أن المعلومة شيء يسيّر الأدمغة البشرية والحواسيب، لذلك هي أقرب ما تكون إلى المفاهيم غير الملموسة، يستخدمها الأفراد بطرائق تناسب أغراضهم وحاجاتهم الخاصة. ويرجّح ريدنج أن خلط الناس واضطرابهم في معرفة كنه المعلومة الدالة ليس وليد الساعة؛ بل يعود إلى منتصف القرن العشرين عندما استعمل لفظ "المعلومة" لينطبق على ظواهر في نظرية السيبارنيطيقا، والحواسيب، ولا يُنكر ما للمعلومة الدالة من دور كبير في خدمة المعنى خاصة في الحوارات العامة ووصف الأحداث التاريخية، فمنهم من عرّف المعلومة الدالة بالعلاقة المتينة بين المرسل والمتلقي وشرط أساسي لإتمام عملية التواصل بينهم، ولا بدّ لأحد الطرفين من الإحساس بالمعلومة الدالة وظهور علامات الاستجابة عليه، فإن لم تظهر هذه العلامات فإننا لا يمكن أن نعدَّ هذا تعريفًا دالًا للمعلومة الدالة وارتباطها الأساسي بالظاهرة البيولوجية للكائنات الحية وغير الحية.

مجلّة العلامة المجلد:05 العدد : 02 التاريخ : 2020/12/01- ISSN 2478-0197 - ESSN 2676-1718

وفي عرضه للعلاقة القائمة بين المعلومة الدالة والطاقة يوضّح ريدنج أن ثمة ترابطًا متينًا بينهما من خلال توافقهما في المعنى التجريدي الثابت ولا سيما أنهما خاصيتان أساسيتان للمادة المنظمة، فإذا كانت الطاقة هي وظيفة كتلة الكيان أو مادته، فإن المعلومة هي وظيفة شكله، وطريقة انتظامه في الفضاء والزمان، وليس من السهولة بمكان الكشف عن المعلومة أو الطاقة الموجودة في الكيان الفيزيائي(الذرات، والجبال، والنجوم...) فلكي تكون الطاقة في المتناول، يجب أن يتحوّل الكيان المنظم إلى حال أقل تنظيمًا وهو ما يحصل عند حرق الوقود الأحفوري على سبيل المثال.

ويفحص الفصل الثالث "التداولية وتعدد المعنى" الجدل الدائر حول تعدد المعنى وتقليب النظر في التحليل التداولي للمشترك اللفظي، ويدور تركيزه على النقاش في تجاور المعطيين التداولي والدلالي، وإسهام البعد التداولي في توضيح الاشتراك الدلالي، ويبين الحباشة أغوار الانحيازات التداولية المضمرة في تعدد المعنى وتداولية التأويل الإرجائي من خلال طرح أسئلة رئيسة ثلاث: هل ثمة قيمة للبعد التداولي أم إنه مكمّل للبعد الدلالي؟ وهل أصل التعدد في المعنى دلالي صرف؟ وما هو أصل التعدد الذي يطرأ تداوليًّا؟

اعتمد الحباشة في الإجابة عن الأسئلة السابقة على رؤى جوفري نانبرغ، وغرايس في دراستهما للاستعارة والمجاز بوصفهما نوعًا من الاستلزام التخاطبي في المجالات التداولية العامة، وأن أي استعمال دلالي مخصوص لا يعني بالضرورة أنه ناجع أسلوبيًّا، وهذه إشكالية فهم التعابير واستعمالاتها تداوليًّا حتى وإن تضمنت هذه التعابير تقعيدًا معجميًّا تبقى محكومة بالسياق الدلالي والاجتماعي الذي استعملت فيه.

وينتقل الحباشة إلى مناقشة تحولات المعنى باعتباره المسار الذي يسمح للفرد باستعمال عبارة ما لتكشف خاصية بوصفها اسمًا لخاصية أخرى، غير أن إمكان اعتماد هذا القول يتطلّب تفسيرات علمية ولمقارنة عادلة بين اللغات في هذا الجانب تحديدًا. ولا شكّ في أن هذا المطلب بات ضرورة حتمية ومدعاة للبحث، للوقوف على أنظمة اللغات القياسية واختلافاتها في أساليب التعبير المولدة للاشتراك اللفظي، وتغيّر المعنى المصاحب جرّاء هذا التعدد اللفظي، والأمثلة التي طرحها الحباشة في هذا الاختلاف كثيرة بين العربية والإنجليزية فمنها أننا في العربية لا نستطيع أن نقبل الاستعمال:

أملك اثنين من زبير التركي وواحدًا من نجا المهداوي.

والمقصود لوحتين رسمهما الرسام الأول، وواحدة للرسام الثاني، بينما تسمح الإنجليزية بجملة مماثلة:

She owns two Picassos and a Renoir.

أنهى الحباشة هذا الفصل بنماذج من التعدد اللفظي وتعدد المعنى في اللغة العربية وعلاقة كل نموذج بتفرعاته الدلالية وما نتج عن هذا التفرعات من تصورات ذهنية مختلفة.

أمّا الفصل الرابع "علم الدلالة العرفاني لديرك جيرارتز" فقد نقله الحباشة إلى العربية إنما هو فصل من كتاب "نظريات علم الدلالة المعجمي" لديرك جيرارتز، وفيه يعرض لنا بداية ظهور اللسانيات العرفانية التي تُعدّ الدلالة العرفانية جزءًا لا يتجزأ منها مُذ بزغ فجرها على يدي جيرارتز.

ويدرس هذا الفصل دور علم الدلالة العرفاني في دراسة معنى الكلمة من خلال أربعة مظاهر: المنوال الطرازي لبنية المقولة، ومساهمات علم الدلالة العرفاني في دراسة تغيّر المعني، والنظرية المفهومية للاستعارة والمجاز المرسل، ونظرية الإطار، مركّزًا بذلك على تصوّر اللسانيات العرفانية للغة ووظيفتها على المستوى الدلالي.

وقد خلص هذا الفصل إلى استعراض موسّع للنظرية الطرازية في اللسانية النفسية عند الباحثة إليانور روش، وذهب إلى أنّ تطور الطرازية كان مقرونًا بتطور علم الدلالة المعجمي اللساني، فأصبح فيما بعد التنظيم الطرازي للمعرفة يؤثر في مسارها التداولي، فأدت هذه النتيجة إلى الحكم بأن الطرازية مفهوم طرازي بحت ظهر إثر إرهاصات اللسانيات النفسية وتبعاتها الدلالية. ثم انتقل إلى الحديث عن امتداد نظرية الطراز إلى وصف الاشتراك الدلالي العرفاني ومستويات المعنى، وما للنظرية الطرازية من أهمية في التماثلات البنيوية بين المستويات المرجعية والمستويات الدلالية.

أمّا الفصل الخامس "وجوه البلاغة والاشتراك الدلالي" فقد خصصه الحباشة لتناول قضية الاشتراك الدلالي عند الغربيين ومحاولة تطبيق مناويلهم على علوم العربية، التي تكاد تفتقر المكتبات العربية إلى دراسات علمية تستوعب النظريات الدلالية التي قاربت مشكلة الاشتراك الدلالي في اللسانيات الحديثة، لذلك يأمل الحباشة من هذا الفصل أن يكون محاولة عربية جادة في اللحاق بركب البحث الدلالي المعاصر في مسألة الاشتراك الدلالي وفق رؤية لسانية محضة.

ويتناول هذا الفصل مبحث الاشتراك الدلالي في علم الدلالة اليوم وكيف أصبحت دراسته ضرورة حتمية لا مناص منها لفهم اللغة والمعنى على حدّ سواء، كذلك لم تغب البلاغة العربية عند حديثه عن الدلالة فأفرد لها مساحة لنقاش التعالق القائم بين البلاغة العربية والاشتراك الدلالي في السياق العربي، ملمحًا إلى أن البلاغيين العرب كانت لهم محاولات لفهم

مجلّة العلامة المجلد:05 العدد : 02 التاريخ : 2020/12/01- ISSN 2478-0197 - ESSN 2676-1718

حركة الدلالة بين أصوات المعاني واجتهدوا اجتهادات فردية خلت من أدوات منهجية نظامية تجعل القراءة منوالاً معممًا.

ويكشف الحباشة في هذا الفصل بشكل صريح علاقة الدلالة بالبلاغة والجوانب المشتركة بينهما، مستحضرًا مفهوم الاستعارة في التراث العربي لتبيان حقيقة الفصل بين التحليل الدلالي والتحليل البلاغي، على اعتبار أنه لا فرق بينهما في الدراسة التداولية للمعنى، وقد بيّن الحباشة أن الفصل بينهما لا ينبغي؛ بل ينبغي أن تتظافر المقاربة بينهما في تحليل الخطاب نظرًا لتطوّر المعنى وتقلبه وقد تناول الباحث بذلك موضوعات عديدة منها "(الاشتراك الدلالي والاستخدام)، (الاشتراك الدلالي والتورية)، (الاشتراك الدلالي والبيان)، (الاستعارة والاشتراك الدلالي). متوّجًا فصله بخاتمة مقتضبة تضمّنت تساؤلات للنقاش الجماعي مع مجموعة من المراجع العربية والأجنبية حول التداولية وتحليل الخطاب؛ وذلك من أجل المزيد من الاطلاع عليها من قبل الباحثين المهتمين.

إن الكتاب في مجمله يحوي كمًّا معرفيًّا غزيرًا، يكشف اللثام عن كثير من المقاربات الدلالية والسيميائية لأولئك الذين يشتركون في وجهات النظر اللغوية والفلسفية للحباشة باحثًا ومترجمًا، إضافة إلى تنوع موضوعات الكتاب في المجالات اللسانية سواء في مجال الدراسات السيميائية والترجمة، أو اللسانيات العرفانية، أو اللسانيات النفسية، أو اللسانيات الذهنية، أو اللسانيات الاجتماعية، فقد أشار الحباشة إلى كل هذه العلوم إشارة حريّة بالأخذ والمدارسة، وقد استرسل في عرضه لهذه النظريات والمقاربات مُستندًا إلى كثير من آراء العلماء، ضاربًا أمثلة لغوية تقود إلى: التوقّع، والتساؤل، والمناقشة، وبناء على هذه المعطيات. كما يبدي الحباشة قراءته الخاصة لبعض المسائل التي يناقشها، وفي مواطن أخرى يترك الحكم للقارئ، ولذا برزت شخصية الحباشة في هذا الكتاب.

[1]عنوان الكتاب: قضايا في السيمياء والدلالة. تأليف الدكتور صابر الحباشة، الطبعة الأولى 2015، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان.

مجلّة العلامة المجلد:05 العدد : 02 التاريخ : 2020/12/01- ISSN 2478-0197 - ESSN 2676-1718